التناص في قصيدة أبي الشيص:

"أشاقك والليل ملقي الجران.."

د. عبد الرحمن عبد الحميد خالد الشرقاوي (*)

المقدمة :

يحسن بالباحث –ابتداءً– أن يُجلّيَ بعض القضايا الهامة المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمفهوم التناص، وتطبيقاته على النصوص، وبيان أبرز المعوقات والصعوبات التي تواجه الباحث حين يشرع في التطبيق والمواجهة.

فالتناص كما يعرفه النقاد: هو شبكة مفتوحة من النصوص السابقة المكونة للنص الجديد، وأشبه ما تكون بالخيوط المختلفة التي ينسج المبدع من خلالها ثوبه الجديد، سواء أكان ذلك بحالة وعي من المبدع أم لا، فالمبدع مذ نشأته الأولى قد تراكمت في ذاكرته معارفُ شتى لا تحصى، وعلومٌ وقيم وآثار كثيرة متنوعة، كوَّنت ثقافته وذابت في اللاوعي، يستحضر بعضها ويستعصي عليه أكثرها بحكم النسيان ومرّ الزمان، فإذا ما شرع في الكتابة أخذ يمتح من مخزونه الثقافي المتراكم لينسج منه لوحته الفسيفسائية الخاصة، التي ليست إلا قطعاً مطمورة من تراث الأسلاف، وما هو –في أغلب الأحايين– إلا معيد لتركيب تلك القطع برؤية جديدة ارتآها.

ومن هنا يقع الحرج على الباحث في مسألة التناص وتطبيقه؛ بسبب الكم الثقافي المفتوح والمجهول للنصوص المتناص معه، والتقاطع الحتمي مع

(*) الأستاذ المساعد بقسم اللغة العربية – كلية التربية الأساسية التابعة للهيئة العامة للتعليم التطبيقي والتدريب بالكويت.

النصوص التراثية السابقة التي لا يُحيط بها إلا الله، إذ إن التناص ليتعدى مسألة التضمين أو الاقتباس المباشر لألفاظ أو عبارات، ويتجاوزها إلى المعاني والإيحاءات والصور الفنية المشتركة والمتشابهة مع النص الجديد (نص المبدع)، الأمر الذي يصعب فيه التمييز بين النصوص المتناص معها، وأيها التي كانت في مخزونه الثقافي؟ وأيها التي استفزته ليتمرد عليها؟ أو أعجبته ليضيف إليها لمسته الخاصة وتصوره الجديد؟

فالغاية ليست في وضع أيدينا على تناصات الشاعر والإشارة إليها فقط، ولكن ما وراء ذلك من جماليات الدهشة وكسر أفق توقع القارئ في التمرد على النصوص المتناص معها، أو الجِدَّة في الإضافة أو الاستدراك عليها، فلكل جديد لذة، وأحياناً قد يقف –المبدع– موقفاً استسلامياً مع الموروث السابق، والسير مع ركبهم وفي قافلتهم دون أي إضافة.

ونشير أخيراً إلى قضية مركزية لا يمكن للمتلقي أو القارئ الدخول إلى النص، ومعالجته تحت نظرية التناص إلا بها، وهي الثقافة الموسوعية عند المتلقي، وتلمسه للألفاظ أو المعاني أو التراكيب أو الصور الفنية الموحية في نص المبدع، والدالة على وجود تناص مع الموروث السابق أو النصوص الناجزة المعاصرة للمبدع.

ودوائر تلك الثقافة الموسوعية والمطَّلعة على كل منظوم ومنثور في تراث الأمة، بل والمحيطة بثقافات الأمم الأخرى أيضاً، لا تتأتى لأحد، لذلك ليس المقصود الاستقصاء لكل النصوص المتناص معها، وإنما الاجتهاد –عموماً– في معرفة جديد المبدع، تمرداً أو إضافة أو تسليماً للموروث.

ولقد أخذتني الحيرة عند وقوفي على نص الشاعر أبي الشيص، وتساءلت: من أين تُؤكل الكتف؟

إذ لا بد من معرفة من أين استقى المبدع ثقافته؟ وبمن تأثر؟ وما هي المعارف والكتب التي اطلع عليها؟ حتى نستطيع الإمساك بخيط أو بضعة خيوط من ذلك النص المنسوج بوعي أو لاوعي!

ومن خلال البحث والمطالعة في الكتب التي ترجمت له، تبيَّن لي أنَّ المعلومات التاريخية عنه شحيحة، إذ لا تسعفنا في التعرف على تكوينه الثقافي، ولا عمن أخذ ولا بمن أُعجب أو تأثر، إلا ما كان من خبر فرد يدل على أنه أخذ الشعر من ابن عمه دعبل بن علي الخزاعي، وقد وجدت أثر هذا الخبر وأفدت منه في بيت من أبيات قصيدتنا يتناص فيه مع دعبل في التركيب والتوظيف، إلا أنَّ هذا لا يكفي في معرفة تناصات القصيدة التي تربو على الأربعين بيتاً، ولذا كان لزاماً مواجهة النص دون مرجعيات أتكِئ عليها في تتبع تناصات القصيدة المدروسة.

نبذة عن الشاعر[1]:

هو محمد بن عبد الله بن رَزين الخزاعي، أبو الشيص لقبه، ويُكنى أبا جعفر، وهو ابن عم الشاعر دِعبل بن علي بن رزين الخزاعي، "ويُقال: إنَّه منه استقى، وحفظ أشعاره كلها، فاحتذى عليها"[2].

(١) انظر ترجمته عند: الدينوري، ابن قتيبة(ت:٢٧٦هـ)، الشعر والشعراء، ج٢، ص٨٣٢، تحقيق: أحمد شاكر، دار الحديث–القاهرة، ٢٠٠٢م/١٤٢٣هـ. وابن المعتز، أبو العباس(ت:٢٩٦هـ)، طبقات الشعراء المحدثين، صـ٧١، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، ط٤، دار المعارف–القاهرة، ١٩٨١م. والأصفهاني، أبو الفرج(ت:٣٥٦هـ)، الأغاني، ج١٦، صـ ٤٠٠، تحقيق: مصطفى السقا، الهيئة المصرية العامة للكتاب–القاهرة، ٢٠١٠م. وغيرها من كتب التراجم والأدب.

(٢) البغدادي، أبو بكر(ت:٤٦٣هـ)، تاريخ بغداد، ج٣، صـ٣٩٦، تحقيق: بشار عواد معروف، ط١، دار الغرب الإسلامي–بيروت، ٢٠٠٢م.

ولد بالكوفة في الثلث الأول من القرن الثاني الهجري كما رجَّح ذلك محقق ديوانه[١]، وعاش فقيراً مُملقاً، يُتلف أمواله في المجون واللهو، وهو من شعراء عصره، ومن طبقة أبي نواس والعباس بن الأحنف ومسلم بالوليد[٢]، وكان الشعر أسهل عليه من شرب الماء، واشتُهر بوصفه للشراب، ومدحه للملوك[٣].

له مدائح في هارون الرشيد حتى عُدَّ من شعرائه[٤]، ثم ارتحل إلى أمير الرقة عقبة بن جعفر الخزاعي وانقطع له، وعمي آخر حياته، و"كان شاعراً مُجيداً في كثرة البكاء على سالف أيامه"[٥]، وتوفي سنة ١٩٦هـ.

ولقد اقتصرت في ترجمته على ما يكفي ويعين في تحليل قصيدته النونية "أشاقك والليل ملقي الجرانِ.." في ضوء نظرية التناص.

قصيدة: " أشاقك والليل ملقي الجرانِ..." (من البحر المتقارب)

إنَّ القصيدة المختارة من عيون قصائد أبي الشيص، وسبب اختياري لها ما قاله ابن المعتز عنها: "ومما طار لأبي الشيص في الدنيا وسارت به الركبان.."[٦]، فهذا وصف كبير من ناقد كبير يستدعي الوقوف عنده. وهي في مدح خليفة عباسي كما يبدو في آخر بيتين منها، إذْ لم يذكر أحد ممن نقل هذه

(١) ديوان أبي الشيص الخزاعي(ت:١٩٦هـ)، صـ١٥، صنعة: عبد الله الجبوري، ط١، المكتب الإسلامي–بيروت، ١٩٨٤م.

(٢) انظر: القيرواني، ابن رشيق(ت:٤٦٣هـ)، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ج١، ص١٠١، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط٥، دار الجيل–بيروت، ١٩٨١م.

(٣) انظر: الأصفهاني، الأغاني، ج١٦، ص٤٠٠.

(٤) البغدادي، تاريخ بغداد، ج٣، ص٣٩٧.

(٥) الإربلي، المذاكرة في ألقاب الشعراء، تحقيق: شاكر العاشور، (المعلومة في الموسوعة الشاملة إلا أنَّ الترقيم غير موافق للمطبوع).

(٦) ابن المعتز، طبقات الشعراء المحدثين، ص٧٨.

الأبيات فيمن قيلت، ولا نستطيع تبيُّنه من خلال الأبيات لسقوط أبيات المدح منها غير البيتين الأخيرين(١).

ولنا أن نتخيل موقف أبي الشيص الشاعر المملق المتطلع إلى الشهرة والجوائز السنية وهو في حضرة أحد خلفاء بني العباس الأقوياء الكرماء، وفي المجلس من الوزراء والعلماء والشعراء ورجالات الدولة ما يجعل الشاعر متحفزاً لتقديم أحسن مدحة وأحكمها حتى تكون له الحظوة عند الخليفة.

لذلك يبتدئ القصيدة بتناص مع الموروث السابق في الكلمة المميزة "أشاقك"، وهي العتبة الأولى من القصيدة، وما للعتبة من أثر في استرعاء أسماع الجمهور، وجذب انتباه أذهان المتلقين، وإعمال عقولهم في استدعاء النصوص السابقة المتناص معها في عتبة المطلع، فمن الشعراء من شاقه الربع المقفر، كما قال حسان بن ثابت رضي الله عنه(٢):

أشاقك من أمِّ الوليدِ ربوعُ بلاقعُ ما من أهلهنَّ جميعُ

وقال عبد الرحمن بن منصور أحد بني عمرو بن كلاب(٣):

أشاقك الربعُ الخلاءُ المقفرُ غيَّره، والدهرُ قد يُغيّرُ

مرُّ الجديدين وهيفٌ مغبرُ ورائحٌ يتبعه مُهجّرُ

---

(١) وهما قوله:

إلى ملك من بني هاشم كريم الضرائب سبط البنانِ

إلى علم البأس في كفّه من الجود عينان نضّاختانِ

(٢) شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، ص٣١٠، تحقيق: عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي–بيروت، ١٩٨١م.

(٣) ثعلب، أبو العباس أحمد(ت: ٢٩١هـ)، مجالس ثعلب، ج٣، ص١١٠، تحقيق: عبد السلام هارون، ط٢، دار المعارف–القاهرة.

وكذا تميم بن أبيّ بن مقبل في غير المطلع استخدم لفظة التشوق مرتين، قال[١]:

أشاقك ربعٌ ذو بناتٍ ونسوةٍ بكرمانَ يُسقينَ السَّويقَ المُقنَّدا

وقال[٢]:

شاقتك أختُ بني دألانَ في ظُعُنٍ من هؤلاء إلى أنسابها شِيَعُ

وشاقتهم الرسوم الدوارس، قال ابن ميَّادة[٣]:

أشاقكَ بالقنعِ الغداة رســـومُ دوارسُ أونى عهدهنَّ قديمُ

وقال جميل أيضاً[٤]:

أشاقكَ عالجٌ فإلى الكثيـــبِ إلى الداراتِ من هضْبِ القليبِ

ومنهم من شاقه البرق من جهة المحبوب، كما قال كثيّر بن عبد الرحمن[٥]:

أشاقكَ برقٌ آخر الليل واصبُ تضمَّنهُ فرشُ الجَبَا فالمساربُ

والشواهد المحتملة لتناص الشاعر معها كثيرة، ويصعب التعرف على ما كان حاضراً منها في ذهن أبي الشيص حين أراد الكتابة، وأيُّها الذي قرأه أبو الشيص فصار من مكوناته الثقافية في اللاوعي؟ لنتبيَّن موقف أبي الشيص من موروثه تمرداً أو إضافة أو استسلاماً !

---

(١) ديوان ابن مقبل، ص٦٣، تحقيق: عزَّة حسن، وزارة الثقافة والإرشاد القومي–دمشق، ١٩٦٢.

(٢) المصدر السابق، ص١٦٩.

(٣) شعر ابن ميَّادة، ص٩٤، تحقيق: محمد الدليمي، مطبعة الجمهورية–الموصل.

(٤) ديوان جميل، ص٣٥، تحقيق: حسين نصار، مكتبة مصر–القاهرة.

(٥) ديوان كثير عزة، ص١٥١، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة–بيروت، ١٩٧١م.

ويمكن القول: إنَّ النصوص المتناص معها لتتراتب قرباً وبعداً بحسب القرائنَ والأدلة. فمثلاً: إذا علمنا أنَّ قصيدة ابن مقبل التي استخدم فيها لفظة " أشاقك "، يستخدم تشبيهاً يتناص معه فيه أبو الشيص في قصيدته نفسها، حيث يقول ابن مقبل يصف جبين ناقته، وأنَّ الطير تمزق جلده أثناء التحامها به في المسير(١):

غدتْ عن جبينٍ تمزُقُ الطيرُ مَسْكَهُ كمزق اليماني السابريَّ المُقدَّدا

وقال أبو الشيص موظفاً (مزق) الرداء اليماني عند الحديث عن الشيب وصدعه فيما بينه وبين العيش المونق زمن الشباب، قال(٢):

لقد صدع الشيبُ ما بيننا وبينك صدعَ الرداءِ اليماني

وهذه القرينة وإن كانت خفيَّة وبعيدة إلا أنَّها تُقرّب شاهد ابن مقبل عن غيره درجة، دون الجزم بتناص أبي الشيص معه تحديداً دون ما سواه من الشعراء، وهنا تكمن إحدى العقبات في تطبيق نظرية التناص في الدرس الأدبي.

ومن حسن الحظ أنَّ أبا الشيص قد تمرَّد –فيما بحثت– على جميع الشواهد السابقة وأتى بصورة جديدة كسر فيها أفق توقع القارئ من جهة مسبب الشوق، فالشعراء –كما أسلفنا– كانت تشوقهم الديار والأطلال أو البروق والرياح أو أطياف المحبوبات والحمام إلى غير ذلك مما هو سائغ في منطق العقل العربي، مألوف مشاهد في حيواتهم ومعاشهم، ولكنه تمرَّد على الموروث السابق واستعان حجاجيًّا بأسلوب المغالطة والإتيان بالغريب المستفز بدل المألوف الشائع ليجذب العقول إلى غرضه، فالغراب لم يكن يوماً باعثاً للشوق، مُهيّجاً للأشجان، إلا أنَّه كان عند أبي الشيص حين قال في مطلعها(٣):

---

(١) ديوان ابن مقبل، تحقيق: عزة حسن، ص٦٧.

(٢) ديوان أبي الشيص، ص١٠٦.

(٣) ديوان أبي الشيص، ص١٠٥.

أشاقكَ والليلُ ملقي الجرانِ غرابٌ ينوحُ على غصنِ بانِ

أحمُّ الجناحِ شديدُ الصياحِ يُبكّي بعينينِ لا تهملانِ

وفي نَعَباتِ الغرابِ اغترابٌ والبانِ بينٌ بعيدُ التَّدانِ

أقف عند هذه الأبيات الثلاثة الأولى وقفتين تناصيَّتين:

أولاهما، ما ذكرناه من تمرده على الموروث المتناص معه في الابتداء بـ "أشاقك"، وتوظيفه للغراب شائقاً إلى الزمن الجميل، والعيش المونق الحسن، فإنَّ في ذلك حجاجاً لمشاعر المتلقين واستمالتها مع قضيته التي سيعرضها في مقدمة القصيدة قبل الخلوص إلى مدح الخليفة، وهي البكاء على سالف الأيام، أيام الشباب وريعانه، والتحسر –بعد مجيء الشيب– على ما فات مع الشباب من لذات ولهو، وتمنيه رجوع تلك العيشة الهنيَّة، وقد كان أبو الشيص مُجيداً مكثراً من ذكر الشيب والبكاء على الشباب، ولعل من أسباب ذلك ظهور الشيب في مفرق رأسه في سنّ مبكرة، في السادسة والعشرين من عمره، حيث قال في الشيب:

ولقد أقولُ لشيبةٍ أبصرتها في مفرقي، فمنحتها إعراضي

عنّي إليك، فلستُ منتهياً ولو غُمّمن منك مفارقي ببياضِ

هل لي سوى عشرين عاماً قد مضتْ مع ستةٍ في إثرهنَّ مواضِ

ويكأنه لمَّا رأى سواد الغراب شاقه، وتذكر سواد شعره أيام الصِّبا حينما كان كما قال[1]:

غلامٌ صغيرٌ أخو شِرَّةٍ يطير معي للهوى طائرانِ

جرورُ الإزارِ خليعُ العِذارِ عليَّ لِعهدِ الصِّبا بُردتانِ

(١) ديوان أبي الشيص، صـ١٠٨.

أُصيبُ الذنوبَ ولا أتقي عقوبةَ ما يكتب الكاتبانِ

والمفارقة بينه وبين الغراب، أنَّ الغراب "يُبكّي بعينين لا تهملان"[١]، وأما هو فقد فزعت عيناه إلى دمعةٍ قطرها غير منقطع، ويؤكد على عينيه بقوله[٢]:

فحُقَّ لعينيكَ ألاّ تجفَّ دموعهما وهما تطرفانِ

ومن فوائد تتبع مواضع التناص في العتبة الأولى "أشاقك"، الرد على من انتقد أبا الشيص وخطَّأه، إذ عاب عليه الرياشي استخدامه (أشاق) فقال: " فالكلام (شاقك) لا غير، فجعل أفعل مكان فعل" [٣]. ولو كان الأمر كما يقول –ولم تكن الهمزة للاستفهام– فإن في استخدام شعراء عصر الاحتجاج أبلغ رد.

وثانيتهما، تناص دلَّنا عليه ابن قتيبة حين أورد بيتين للمعلوط السعدي:

تنادى الطائران ببينِ سلمى على غصنينِ من غربٍ وبانِ

فكان البانُ أنْ بانتْ سُليمى وفي الغربِ اغترابٌ غيرُ داني

---

(١) وهنا تناص أيضاً في صورة الحمام الذي يبكي بغير دموع، بقول مجنون ليلى(انظر: الأصبهاني، الزهرة، ج١، صـ٣٥٨):

ولم تر عيني قبلهنَّ حمائماً بكينَ ولم تدمع لهنَّ عيونُ

وقال أبو صفوان الأسدي(انظر: القالي، الأمالي، ج٢، صـ٢٣٨):

فلم أر باكية مثلها تُبكّي ودمعتها لا تُرى

(٢) ديوان أبي الشيص، ص١٠٨.

(٣) انظر: البغدادي، بهاء الدين(ت:٥٦٢هـ)، التذكرة الحمدونية، ج٧، صـ٢٩٨، ط١، دار صادر–بيروت، ١٩٩٦م.

أخذ معناها أبو الشيص فقال: "أشاقك والليل.." الأبيات الثلاثة الأولى[١]. ولم يكن المعلوط السعدي –وهو شاعر إسلامي– بدعاً من الشعراء، ففكرة التطير بأسماء الأشياء دارجة على ألسن الشعراء في الجاهلية وحتى بعد تحريم التطير في صدر الإسلام والدولة الأموية، فممن يتناص معهم أبو الشيص في التشاؤم من الغربان –كما أورد ذلك الوشاء في الموشى– كثيّر عزة[٢]، ونُصيب[٣]، وغيرهما. وهنا انسجم أبو الشيص والموروث، وتماشى معه إمعاناً في بيان حاله الرثة، ليستدر من خلال تناصه هذا عطف المتلقين وإشفاقهم، وعلى رأسهم الخليفة الممدوح، ومما يعزز هذا الرأي، أنَّ لأبي الشيص نظرةً أخرى في التشاؤم من الغراب، إذ يرى أنّ الإبل هي الأولى بالتشاؤم من الغربان، فهي التي تحمل الأحمال حين الرحيل، فتفرّق الأحباب، والناس بجهلهم يتهمون غراب البين[٤]!

---

(١) الدينوري، ابن قتيبة(ت:٢٧٦هـ)، عيون الأخبار، ج١، صـ٢٣٧، دار الكتب العلمية– بيروت، ١٤١٨هـ–١٩٩٧م.

(٢) قال كثير: (انظر: الوشاء "ت: ٣٢٥هـ"، الموشى، صـ١٧٥، تحقيق: كمال مصطفى، ط٢، مكتبة الخانجي–مصر، ١٩٥٣م)

رأيتُ غراباً ساقطاً فوق بانةٍ يُنتّفُ أعلى ريشه ويطايره

فأما غرابٌ، فاغترابٌ من الهوى وبانٌ، فبينٌ من حبيبٍ تعاشره

(٣) وقال نُصيب: (انظر: الوشاء، الموشى، صـ١٧٦)

ألا راع قلبي من سلامة أن غدا غرابٌ على غصنٍ من البان ينعبُ

فأزجرُ ذاك البانَ بيناً مُواشكاً وغربة دارٍ ما تدانى فيصقُبُ

(٤) قال في مقطوعة له في ديوانه(صـ٩٥):

ما فرَّق الأحبابَ بعد الله إلا الإبلُ

والناس يلحون غراب البين لمَّا جهلوا

وما إذا صاح غرابٌ في الديار احتملوا

وما على ظهر غراب البين تُطوى الرِّحلُ

وما غراب البين إلا ناقةٌ أو جمَلُ

ومن مواضع التناص أيضاً قوله في البيتين التاليين[١]:

لعمري لئن فزعتْ مقلتاكَ إلى دمعةٍ قطرها غير وانِ

فحُقَّ لعينيك ألاَّ تجـــفَّ دموعُهما وهمـــا تطرفانِ

لمَ استخدم (فزعت) ولم يستخدم لفظة أخرى كـ(لجأت) مثلاً، فلن يكسر وزن البيت؟

من خلال هذا السؤال يمكن الاستدلال على تناص أبي الشيص هنا مع حديث مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا حزبه أمرٌ فزع إلى الصلاة[٢]. والصلاة صلة العبد بالملك، وجمالية الحجاج في هذا التناص: أنَّ أبا الشيص قد حزبه أمر جلل (الشيب والكبر)، مما جعل عينيه تفزعان إلى الدموع، ودموع الرجال عزيزة، فهل يجبر الخليفة كسر قلبه؟ ويكفيه همَّ الدهر به عيلةُ وشيبة؟

ومن التناصات قوله في القصيدة يودع الشباب ولياليه[٣]:

عليك السلام فكم ليلةٍ جموحٍ دليلٍ خليعِ العنانِ

يتناص فيه بالتركيب الأول (عليك السلام فكم) مع ابن عمه دعبل الخزاعي، وكان أبو الشيص قد احتذى حذوه واستقى منه. قال دعبل في الوداع[٤]: [من المتقارب، أي من البحر نفسه]

---

(١) ديوان أبي الشيص، ص١٠٦.

(٢) المباركفوري، أبو العلا(ت:١٣٥٣هـ)، تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، ج١٠، ص٢٦٧، دار الكتب العلمية–بيروت.

(٣) ديوان أبي الشيص، ص ١٠٦.

(٤) شعر دعبل الخزاعي، ص ٢٤٨، صنعة: عبد الكريم الأشتر، ط٢، مجمع اللغة العربية–دمشق، ١٩٨٣م.

عليك السلام فكم من وفاء نفارقه منك أو من كرمْ

وكذا من مواضع التناص في القصيدة بعد أن اشتاق لعودة الشباب وريعانه، وما في لياليه من أُنس ولهو وطرب، إذ كان يقصّرها بقرع الدفوف وعزف القيان، وبالخمر والسكر، ويُسهب في وصف مجلس الخمر –وكان مُجيداً لوصفها– فيذكر قِدَمَ تخزينها في بطون الدنان، وانشغال الشمس بصبغتها وتعتيقها، ثم يصف السقاة وطوافهم بالكؤوس على الجلوس، إلى أن يقول في وصف الساقي(١):

يطوف علينا بها أحورٌ يداهُ من الكأسِ مخضوبتانِ

روى الأصفهاني في الأغاني(٢) أنّ رجلاً سأل أبا نواس: "مَن أشعر طبقات المحدثين؟ قال: الذي يقول: (يطوف علينا.. البيت)". إذ نجده يتناص مع القرآن الكريم في ثلاث آيات، كلها في ذكر مجلس أهل الجنة، وما يكون فيه من نعيم أبدي كامل لا نقص فيه، ومن ذلك طواف الولدان المخلدين بخمرة الجنة عليهم، قال الله تبارك وتعالى في سورة الواقعة(٣): "يطوفُ عليهم ولدان مخلَّدون* بأكوابٍ وأباريقَ وكأسٍ من معين* لا يُصدَّعون عنها ولا يُنزفون"، وفي سورة الطور(٤) يقول الله: "ويطوفُ عليهم غلمانٌ لهم كأنهم لؤلؤٌ مكنون"، وفي سورة الإنسان(٥) قوله تعالى: " ويطوف عليهم ولدانٌ مخلَّدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً"، وقد أحسن أبو الشيص غاية الإحسان في تناصه هذا من وجوه، فالوجه الأول: أنه استعار لمجلسه الدنيوي الناقص ثياباً قشيبة من المجلس الأخروي الكامل، وليؤكد

(١) ديوان أبي الشيص، ص١٠٨.
(٢) الأصفهاني، الأغاني، ج١٦، ص٤٠٢.
(٣) سورة الواقعة، الآيات (١٧–١٩).
(٤) سورة الطور، آية (٢٤).
(٥) سورة الإنسان، آية (١٩).

مرة بعد مرة على لذة أيام شبابه ولياليه، وذلك أبلغ في الإشفاق عليه بعد تدهور حاله. والوجه الثاني: أنه اتكأ على دائرة ثقافية مشتركة واسعة بين غالب المتلقين أو كلهم، فمن لا يحفظ أو يقرأ مثل هذه الآيات؟ ثم إنَّ التصور الحاضر في أذهان المتلقين ليختلف حين يتخيلون الجنة ومجالسها وما فيها من نعيم، كلٌّ وثقافته التراكمية ومعجمه اللفظي، إلا أنَّه جمع أشتات هذه الأذهان على قضية مشتركة مهمة: وهي الكمال، أعني كمال الصورة المتخيلة، فأكمل ما عند المتلقي من صورة ستكون عن الجنة، وهذا ما أراد استحضاره أبو الشيص عندهم. والوجه الثالث: في استدعاء أوصاف الـ(ولدان/غلمان) في الآيات وإسقاطها على الساقي الأحور، فهو كاللؤلؤ جمالاً وبهاء، وكذا في صفة خمر الجنة (كأس من معين) مملوءة.

وكل هذه الوجوه تندغم في سبيل الحجاج، وما يريد إيصاله أبو الشيص – للمتلقين ومن ورائهم الخليفة الممدوح– من غرض مقصود مستقر في نفسه.

ومنها أيضاً قوله في النساء النافرات عنه بعد أن علا الشيب مفرقه، وعدمت حالته، قال[1]:

فصدَّت وقالت: أخو شيبة عديمٌ، ألا بئستِ الحالتانِ

ونجده معجباً بهذه الفكرة فيرددها في قصيدته الضاديّة أيضاً، قال:

اثنان لا تصبو النساء إليهما ذو شيبةٍ، ومحالفُ الإنفاضِ

وهذان البيتان يتناصَّان مع أبيات علقمة بن عبدة الفحل الشاعر الجاهلي في بائيَّته الشهيرة، والتي يذكر فيها خبرته عن النساء، وعلمه بهنَّ، قال[2]:

---

(١) ديوان أبي الشيص، ص١٠٩.

(٢) شرح ديوان علقمة الفحل، صـ١١، شرح: السيد أحمد صقر، ط١، المطبعة المحمودية– القاهرة، ١٩٣٥م.

فإنْ تسألوني بالنساء فإنَّني خبيرٌ بأدواءِ النساءِ طبيبُ

إذا شابَ رأسُ المرءِ أو قلَّ مالُهُ فليسَ لهُ من وُدّهنَّ نصيبُ

يُردنَ ثراءَ المال حيثُ علمنَهُ وشرخُ الشبابِ عندهنَّ عجيبُ

يُسلّم أبو الشيص أمره لخبرة علقمة وطبابته في النساء، وكأنَّه آمن بفلسفته، واقتنع بتنظيره لما رأى من عزوف النساء عنه بعد ظهور المشيب في رأسه وقلَّة ذات يده، فراح يكررها في موضعين من قصيدتين أسفاً على حاله، وإظهاراً لموطن الضعف والشفقة، حتى يحن عليه الممدوح ومن حوله له.

ومن تلك التناصات أيضاً قوله في البيتين الأخيرين من القصيدة التي بين أيدينا يمدح الخليفة:

إلى علم البأس في كفّه من الجود عينان نضَّاختان

يتناص مع قول الله تعالى في سورة الرحمن حينما يذكر ما لأهل الجنة من نعيم في الجنان، يقول سبحانه: "فيهما عينان نضَّاختان[1]"، أي فوَّارتان لا تنقطعان، فيُسقط وصف تلك العينين في الجنة على يدي الممدوح اللتين لا تسأمان ابتداء الكرم قبل سؤل السائل، واستمرار الجود في كل سبيل، لذلك كان التناص محكماً في تشبيهه وابتكارياً في توظيفه.

**

(١) سورة الرحمن، آية ٦٦.

الخاتمـة

إنَّ تطبيق نظرية التناص على النصوص الشعرية أو الأدبية ليعين على تلمس مواطن الجمال في النص من خلال التمرد أو التجديد على النصوص السابقة، والإتيان بما يكسر أفق توقع القارئ أو التنميط في الصور الشعرية الجمعية عند المتلقين، وكذا هو خير شاهد للاستدلال على ثقافة الأديب، وبيان مدى ذكائه في توظيف ذلك الموروث، وحسن استغلاله له بما يتلاءم وأغراضه وغاياته الشعرية.

**

المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم.**
- الأصفهاني، أبو الفرج(ت:٣٥٦هـ)، الأغاني، تحقيق: مصطفى السقا، الهيئة المصرية العامة للكتاب–القاهرة، ٢٠١٠م
- البغدادي، بهاء الدين(ت:٥٦٢هـ)، التذكرة الحمدونية، ط١، دار صادر–بيروت، ١٩٩٦م.
- البغدادي، أبو بكر(ت:٤٦٣هـ)، تاريخ بغداد، تحقيق: بشار عواد معروف، ط١، دار الغرب الإسلامي–بيروت، ٢٠٠٢م.
- ثعلب، أبو العباس أحمد (ت: ٢٩١هـ)، مجالس ثعلب، تحقيق: عبد السلام هارون، ط٢، دار المعارف–القاهرة.
- الدينوري، ابن قتيبة(ت:٢٧٦هـ)، عيون الأخبار، دار الكتب العلمية–بيروت، ١٤١٨هـ–١٩٩٧م. الشعر والشعراء، تحقيق: أحمد شاكر، دار الحديث–القاهرة، ٢٠٠٢م/١٤٢٣هـ.
- ديوان جميل، تحقيق: حسين نصار، مكتبة مصر–القاهرة.
- ديوان أبي الشيص الخزاعي (ت:١٩٦هـ)، صنعة: عبد الله الجبوري، ط١، المكتب الإسلامي–بيروت، ١٩٨٤م.
- ديوان كثير عزة، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة–بيروت، ١٩٧١م
- ديوان ابن مقبل، تحقيق: عزَّة حسن، وزارة الثقافة والإرشاد القومي–دمشق، ١٩٦٢.
- شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، تحقيق: عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي–بيروت، ١٩٨١م.

- شرح ديوان علقمة الفحل، شرح: السيد أحمد صقر، ط١، المطبعة المحمودية–القاهرة، ١٩٣٥م.
- شعر دعبل الخزاعي، صنعة: عبد الكريم الأشتر، ط٢، مجمع اللغة العربية–دمشق، ١٩٨٣م.
- شعر ابن ميَّادة، تحقيق: محمد الدليمي، مطبعة الجمهورية–الموصل.
- القيرواني، ابن رشيق (ت:٤٦٣هـ)، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط٥، دار الجيل–بيروت، ١٩٨١م.
- المباركفوري، أبو العلا (ت:١٣٥٣هـ)، تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، دار الكتب العلمية–بيروت.
- ابن المعتز، أبو العباس (ت:٢٩٦هـ)، طبقات الشعراء المحدثين، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، ط٤، دار المعارف–القاهرة، ١٩٨١م.
- الوشاء (ت: ٣٢٥هـ)، الموشى، تحقيق: كمال مصطفى، ط٢، مكتبة الخانجي–مصر، ١٩٥٣م.

* * *